

عولمة إعلام الطفل وضياح الهوية

الدكتور عبد الله ثاني قدور
أستاذ سيميولوجية الصورة
قسم علوم الإعلام والاتصال
جامعة وهران (الجزائر)

• تمهيد:

إن وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية من صحافة وإذاعة وتلفزيون ومجلات وإعلانات وأفلام، وغيرها من الوسائل المعروفة قديما وحديثا، وكذلك الإعلام الآخر من الاتصال الشخصي من خلال الندوات والمحاضرات وورشات العمل والتدريب. قد أدت دورا هاما في تطوير المجتمعات البشرية وفي تغيير سلوك الأفراد، وفي تنويع الصلات التي تربط أفراد هذه المجتمعات فيما بينها⁽¹⁾، لذلك لا بد من أن يكون للإعلام دور هام وخطير في العمل الأسري، وخاصة إذا علمنا أن هذا الإعلام سيف ذو حدين حيث يمكن لوسائله المنتشرة أن تكون أداة استنهاض ورفعة أو أداة انحطاط وتخلف. وأن يكون الاهتمام بالهوية العربية والإسلامية هماً وطنياً لا يسمح بالاعتداء عليه ممن سال لعابهم لكسب المال دون شعور بالمسؤولية⁽²⁾. ولكن رغم هذا نجد أن المادة الإعلامية الموجهة للأطفال وهم رجال الغد، من أخطر الصناعات الإعلامية في العصر الحالي، ومن أكثر الصناعات التي تشهد إقبالا من طرف المستثمرين وشركات الإنتاج العالمية⁽³⁾، نظراً لما تدره من أرباح سنوية تقدر بملايين الدولارات بسبب استهدافها لشريحة واسعة تتسع دائرتها باستمرار، وهي شريحة الأطفال والشباب واليافعين⁽⁴⁾. وتأثيرها المباشر على مستقبل تربيتهم، بالرغم من الجدل القائم حول تأثير هذه الوسائل الإعلامية الذي لا ينتهي، ويؤكد (فردريك فيرثام)، عالم النفس الأمريكي، الألماني الأصل، على تأثير وسائل الإعلام في الناس، والذي ورد في كتابه: "إغواء الأبرياء" (Seduction of Innocents). يقول فيرثام Fredric Wertham، في معرض رده على الذين يشككون في قدرة

1 د. زهير إحدادن. مدخل لعلوم الإعلام والاتصال ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ط2. ص 13.

2 إيمان حلاق. الإعلام العربي بين البناء والهدم. www.sandroses.com/abbs/t98334/

3 عبد الله ثاني قدور. الحضارة الغربية وهيمنة ثقافة الصورة. مقارنة سيميولوجية للإعلام المرئي الغربي. مجلة الحضارة الإسلامية. جامعة وهران. 2004. ص 112.

4 إدريس الكنبوري. الطفل المسلم والإعلام المطلوب. <http://www.saaaid.net/arabic/ar64.htm>

وسائل الإعلام على التأثير في الناس الذين يتعرضون لها(1): {كلما وقع نظري على كتاب من هذا النوع (كتب مصورة للأطفال، فيها مشاهد عنف وجنس)، في يدي صبي في السابعة من عمره، وكأن عينيه ملتصقتان بغراء على الصفحة المطبوعة، أشعر وكأنني أبليه، حين أطالب بأن آتي بالدليل على أن مثل هذا الشيء، ليس غذاء عقليا صالحا للأطفال}.

• نشأة الإعلام الموجه للطفل

إن لوسائل الإعلام دور هام في تغيير السلوك الإنساني وذلك بتغيير المعارف والقيم عن طريق المناقشة والإقناع. ويفترض على بيل المثال، أنه في برامج الإعلام، تؤدي المعرفة إلى تغيير المواقف التي تؤدي بدورها إلى تغييرات سلوكية. ومع ذلك، فيجب أن نضع في اعتبارنا أن المعرفة لا تؤدي دوماً لتغييرات في الموقف، ولا أن تغييرا في السلوك يعقبه بالضرورة تغييرا في الموقف(2). وبفضل انتشار الهوائيات المقعرة وتعدد القنوات الفضائية وظهور شبكة الإنترنت وعولمة الصورة والصوت، أصبح إعلام الطفل يشهد تنامياً ملحوظاً، وصار أكثر قرباً من الطفل داخل البيت، وقد حمل هذا الانتشار السريع معه أساليب جديدة وأكثر تطوراً لاستمالة الطفل والسيطرة على عقله ودفعه إلى الإدمان(3).

ولاشك أن هذا التوسع المذهل في تجارة التسلية الموجهة للأطفال يخفي الكثير من المخاطر والسلبيات. فجل الشركات المنتجة والعاملة في هذا القطاع هي شركات غربية متعددة الجنسيات، توجه نشاطها ثقافة غربية وفهم غربي لمعاني التسلية واللعب والترفيه والتربية، ومتجذرة في أخلاقيات العلمانية الغربية التي تتعامل مع إعلام الطفل بمنطق السوق والجري وراء الربح والكسب دون اهتمام بالقيم، وفي حالة التعارض فإن الغلبة تكون دائماً للكسب(4).

والحقيقة أن إعلام الطفل سواء في الولايات المتحدة أو أوروبا نشأ في إطار سياسات حضارية عاملة لدى نخبة المفكرين وصانعي القرار من أجل التحكم في ميول الطفل وغرائزه وتلقينه أخلاقيات وفلسفة المجتمع الغربي، وتدريبه على ما ينبغي أن يتحلى به من أخلاق وخصال فردية

1 . Fredric Wertham. Seduction of the Innocent.

2 د.محي الدين عبد الحليم. الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية. مطبعة المدني، مصر ط2. سنة 1984. ص19.

3 إدريس الكنبوري. الطفل المسلم والإعلام المطلوب. http://www.saaaid.net/arabic/ar64.htm.

4 المرجع نفسه

واجتماعية، في سياق إعادة بناء الفرد والمجتمع. ففي المجتمعات الغربية الرأسمالية نشأت ثقافة الطفل في التلفزيون لتكون في خدمة الثقافة الرأسمالية وتطلعاتها، ولتكسب الطفل الغربي نزعة الكسب والقوة والجشع والاستهلاك وحب الذات والإيمان بالفردية، وحذت المجتمعات الشيوعية في الستينات والسبعينات حذو المجتمعات الرأسمالية في إنتاج ثقافة خاصة بالطفل تحاول زرع الإيديولوجية الشيوعية في نفسه وعقله ووجدانه، وتربيته على أخلاقيات المجتمع الاستراكي بكل الأفكار ذات الجذور الشيوعية، مثل فكرة الإلحاد وأصل الحياة والصراعات الطبقيّة وغير ذلك. ورغم ما يظهر من وجود تباينات بين هذه الرؤى، إلا أن الفلسفة ظلت واحدة، وهي العنف والصراع والسيطرة والبعد المادي في الحياة(1).

(فإذا أخذنا كمثال نموذج "والت ديزني" الأمريكية الشهيرة، فإننا سنكتشف وراء هذه الإمبراطورية الأمريكية الخاصة التي تعمل في تجارة التسلية الموجهة للأطفال على وجه الخصوص، شبكة من المصالح والأهداف التي تتحوّل إلى تمييط وعي الطفل وتعليبه في نمط ثقافي وحضاري معين، يعكس أخلاق الليبرالية والرأسمالية المتوحشة، كالصراع والربح والاقتناء والقوة وعدم وجود قوة فوق الإنسان وسيادة الفرد ورغباته ونزواته، كمعيار وحيد يحدد سلوكياته في الحياة ومعاملاته مع الآخرين(2).

ومن خلال الدراسة التي قاما بها الباحثان الأمريكيان لكتب (والت ديزني) الهزلية الواسعة الرواج عبر العالم، أنها تتضمن العنصرية والإمبريالية والجشع والعجرفة، بعيدة عن القيم. وأن العالم الخيالي الموجه للأطفال يغطي نسيجاً متشابكاً من المصالح ويخدم إمبريالية أمريكا الشمالية. وقد ظهر عام 1999 أن توجهات هذه الشركة ليست محايدة كما كان يعتقد الكثيرون، عندما اعتزمت إقامة جناح خاص بالقدس الشريف يعرضها كعاصمة للكيان الصهيوني بمناسبة معرض الألفية الثالثة(3).

• إعلام الطفل وخطر الصورة

لقد أصبح لإعلام الصورة تأثير خاص على الأفراد والجماعات والدول ولا غبار على من يقول بأن طلقة البندقية يمكنها أن تقتل فرداً

1 المرجع نفسه

2 المرجع نفسه

3 عبد الله ثاني قدور. واقع العالم الإسلامي والطرق السريعة للمعلومات. مجلة الإحياء. جامعة باتنة. 2004. ص146.

أوبأن انفجار قنبلة يقتل الآلاف، غير أن الصورة الواحدة يمكنها أن تقتل الملايين، ووسائل الإعلام المرئية بلا منازع هي الوعاء الذي يمكن هذه الصورة أن تنتشر في التوالحظة على مستوى العالم بدون رقيب من خلال الأقمار الصناعية وهو ما يطلق عليه مصطلح البث المباشر(1).

إن استخدام إعلام الصورة المخطط القائم على إستراتيجية علمية، قد حقق آثارا بالغة الخطورة في تحقيق التقدم الحضاري المادي في الدول الغربية، إلا أنه في الوقت ذاته كان سلاحا بئارا في يد أعداء الإسلام الذين سيطروا على الإعلام الموجه إلى العالم الإسلامي، واستطاعوا بالسيطرة على وسائل الإعلام المرئية العالمية الحديثة، وتسخيرها وفق تخطيط دقيق لغزو الشعوب العربية والإسلامية واستلابهم فكريا والهيمنة الدائمة عليهم، وصرفهم عن منابع دينهم الصافية(2).

إن الصورة المتحركة المصحوبة بالصوت في المراحل المبكرة للطفل تتجاوب مع الوعي الحسي والحركي لديه، وتحدث استجابات معينة في إدراكه، تساهم فيما بعد في تشكيل وعيه وتصوره للأشياء من حوله، لأنه يختزنها وتصبح رصيده الثقافي والوجداني والشعوري. لكن الصورة والرسوم ليست مستقلة عن الأبعاد الثقافية وعن الهوية الحضارية، فالصورة في نهاية الأمر وسيلة تبليغ وأداة تواصل وجسر بين الطفل والرسالة المحمولة إليه(3).

فالطفل في سنواته الأولى يكون قابلا لتقبل أي شيء يقدم له، لأنه يعيش مرحلة التعرف، ويبدأ خطواته الأولى في الإحساس بما يلمسه أويراه أويسمعه، ويتأثر بما يحيط به من مؤثرات ثقافية مسموعة أو مرئية أو مقروءة، فيتفاعل معها بتلقائية ويسير في نسقها، حتى يصبح من الصعب التخلص كلياً أوجزئياً من آثارها السلبية على شخصيته ونموه ووعيه. ومن العوامل المعيقة لنمو شخصية الطفل نمواً طبيعياً سليماً الإعلام الفاسد والإدمان المستمر عليه(4).

فغالبيت البرامج الإعلامية المستوردة من الحضارة الغربية وقيمها ومنتجاتها العلمية والفنية والتاريخية، لا تتوافق مع قيمنا المنبثقة من عقيدتنا الإسلامية ثم إن البلدان العربية والإسلامية تعدمها صناعات

1 د. جمال النجار. إستراتيجية الإعلام الإسلامي. دار السعادة للطباعة. القاهرة. ط. 1. 1995. ص 115.

2 المرجع نفسه، ص 117.

3 عبد الله ثاني قدور. الحضارة الغربية وهيمنة ثقافة الصورة. مقارنة سيميولوجية للإعلام المرئي الغربي.

مجلة الحضارة الإسلامية. جامعة وهران. 2004. ص 112.

4 إدريس الكنبوري. الطفل المسلم والإعلام المطلوب. <http://www.saaaid.net/arabic/ar64.htm>

إنتاجية ثقافية استعمارية مستوردة لا تمت لحاضرنا وقيمنا وعاداتنا بأية صلة وأيضاً تعتمد أجهزة الإعلام العربية والإسلامية من خلال برامجها إلى القيام بدعاية للحضارة الغربية والتحدث عنها بإكبار وتقدير وتقديم نماذج غربية للشباب للاقتداء بها، وبرامج ستار أكاديميك، وسوبر ستار، وغيرها..

إن إعلام الطفل الغربي المعولب، أدى منذ نشأته دوراً خطيراً في تنشئة الطفل التنشئة الاجتماعية والثقافية المنحرفة، فكثير من البرامج التلفزيونية الموجهة لأطفال عالم الثالث وأبناء المسلمين من أفلام الكرتون وعرائس القراقوز وغيرها.. تحوي مشاهد فاضحة مخلة بالحياء وهدامة للقيم الدينية السوية ومتعارضة مع الهوية الحضارية للطفل المسلم، تسعى إلى إقناعه من خلال الأفكار المدسوسة في هذه البرامج، بأنها هي قيم الخير والحرية السائدة في واقع حياتنا، فتقوم بترويض الأطفال مبكراً للتعايش مع هذه الأفكار الهدامة في كبرهم. فهي تتضمن دعوات مشبوهة ومبطنة إلى الإلحاد والتبشير والدعاية للمجتمع الغربي وثقافته، من خلال تمجيد القوة والنمط الاستهلاكي في العيش والمنفعة الخاصة(1).

• إعلام الطفل وضياح الهوية

إن الثورة التكنولوجية وعصر المعلومات والعولمة والصحافة الإلكترونية قد غيرت العالم جذرياً(2)، ولم يقتصر هذا التغيير على طبيعة الدولة القومية بل تجاوزه إلى السلوكيات والقيم الاجتماعية للبشر إن لم تكن قد قلبتها رأسها على عقب(3). ولا أحد يتنبأ باتجاه تطور الأوضاع الحالية وإلى أين تتجه؟ فكل تطور يحمل داخله نقيضه وبذور فناءه، ويعود هذا أساساً إلى أننا نعيش حالياً بدايات عصر جديد ولا نزال نتعرف على كنهه ومقدماته، وإن كانت تأثيراته لا تخفى على أحد(4).

فشبكة الانترنت تدفع الحياة إلى ما وراء الحواجز الطبيعية القديمة للزمان والمكان إذ بوسعك أن تتجول بواسطتها في دول العالم دون مغادرة مكتبك. فهو عبارة عن عالم افتراضي يسمح لنا بارتداد عالم

1 اسحاق أحمد فرحان: التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الشهاب، الجرائ، ط1، 1987، ص12

2 NAA Newspaper Association of America

3 عبد الله ثاني قدور. واقع العالم الإسلامي والطرق السريعة للمعلومات. مجلة الإحياء. جامعة باتنة. 2004. ص148.

4 د. سليمان إبراهيم العسكري. إعلام العولمة. قيم جديدة. أم انكفاء عن ذات. مجلة العربي، الكويت العدد 517، ديسمبر 2001، ص11..

وهي مترامي الأطراف وبالإبحار في داخله دون قارب نجاة. فالكثيرون منا لا يمارسون الرياضة لكنهم يعشقون مشاهدة الرياضيين الكبار أصحاب القدرات البدنية الهائلة فهناك الحب الافتراضي والجنس الافتراضي والحوار الافتراضي والموسيقى الافتراضية(1). وهذا التطور التكنولوجي المتسارع في وسائل الاتصال طور وظيفة العلاقات العامة، وتميزت بالسرعة والغزارة وسعة الانتشار. ومن الأمثلة على ذلك تطبيق العلاقات العامة في هذه التكنولوجيات المعاصرة وما تشهده اليوم من استخدام كبير للوسائل الإلكترونية حول العالم وبسرعة فائقة.

إن الحرب الخفية من قبل الغرب على المسلمين، من خلال ما يرسلونه ويبثونه من سموم قاتلة عبر التلفزيون وشبكة الانترنت والوسائل الإلكترونية المختلفة، بقتل الوقت وإضاعة العمر وإشغال الفرد والأمة عن أداء واجبات هامة، والإسهام في تقطيع الأواصر والعلاقات بين الناس وزرع بذور الشك ونزع الثقة فيما بينهم حيث يتم تمزيق العائلة الواحدة، ونقل أخلاق البيئات الشاذة والمنحرفة إلى مجتمعنا وفرض نماذج أخلاقية سيئة وهابطة على الناس وتعويد المسلم عدم غض البصر وعصيان أوامر ربه ورؤية المنكرات دون إنكارها وتشويه شخصيات التاريخ الإسلامي في عقول الناشئة المشاهدين وبناء ثقافة مشوهة لدى الأطفال من خلال أفلام الكرتون وإشاعة الفساد بين المؤمنين والإسهام بشكل مباشر في هبوط مستوى التحصيل العلمي لطلبة المدارس والمعاهد والجامعات الذين سيصبحون قادة المستقبل فيما بعد(2).

إن أثر ما يبثه هذا الإعلام لم يعد محلاً للنقاش إذ ذكرت دراسة علمية تطبيقية أن نسبة كبيرة من الشباب في سن المراهقة يترجمون ما يقدم في القنوات من أعمال تمثيلية إباحية وإجرامية إلى وقائع حية في حياتهم وينعكس أثر ذلك في أنفسهم وأهلهم(3). كما أشارت الدراسة إلى أن نسبة (50%) يفكرون فور مشاهدتهم لبرنامج إجرامي أو إباحي بشكل جدي في تطبيق ما شاهدوه بشكل فعلي! فالحرب الخفية التي تقوم بها هذه الشركات، والتي تعمل على أساس أن الطفل عالم قابل للتشكيل بحسب الرغبات والأهداف المقصودة،

1- المرجع نفسه، ص 10

2- د. محي الدين عبد الحليم، الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، مطبعة المدني، مصر ط2، سنة 1984، ص 22.

3- عبد الله ثاني قدور، الحضارة الغربية وهيمنة ثقافة الصورة، مقارنة سيميولوجية للإعلام المرئي الغربي، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2004، ص 116.

وأنه رهان كبير على المستقبل والحاضر، إذ بامتلاكه والسيطرة على وعيه والتحكم في ميولاته يمكن امتلاك المستقبل والسيطرة عليه، فالطفل هو الغد القادم، وما يرسم هذا الغد هونوعية التربية والتلقين التي نقدمها لهذا الطفل في الحاضر(1).

إن أفلام الكرتون والرسوم المتحركة الموجهة للأطفال تصبح خطراً حقيقياً حينما تخرج عن سياقها الحضاري الذي نشأت فيه. وتتحول إلى سموم قاتلة. فحجم الأذى والسلبيات التي تنتج عن هذه البرامج المستوردة والمد بلجة على الطفل المسلم الذي يتأثر بها لا يستطيع عاقل أن يتصورها. فمثل هذه الأفلام تجعل الطفل المسلم يتلقى سموماً من القيم والعادات والأفكار الغريبة عن بيئته العربية الإسلامية التي يعيش في كنفها، لكنه يستوعبها ببراءته المستسلمة، فتتمولديه دوافع نفسية متناقضة، بين ما يتلقاه على شاشة التلفزيون، وما يعيشه داخل الأسرة والبيئة والمجتمع، فيكون ذلك بداية الانحراف والوعي غير السوي(2).

1 عبد الله ثاني قدور. واقع العالم الإسلامي والطرق السريعة للمعلومات. مجلة الإحياء. جامعة باتنة. 2004. ص146.

2 إدريس الكنبوري. الطفل المسلم والإعلام المطلوب. <http://www.saaaid.net/arabic/ar64.htm>